# المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والفنون - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية
المجلد الثامن - العدد الثاني - ١٣٩٩ - ١٩٧٩

2

WWW.ATTAWEEL.COM

## أسد الدين شيركوه

# ملاحظات حول كتابة التاريخ
# الشعر والتاريخ

بقلم الدكتور
نوري حمودي القيسي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

ان الدعوة التي اطلقها الرفيق صدام حسين حول كتابة التاريخ تمثل التحرك الجديد الذي يجب ان ياخذ به الدارسون ويسلكه المسؤولون عن التاليف والتدريس والتدوين من اجل اعادة النظر وفق المنطلقات التي حددها والمتمثلة في النظرة الى التاريخ وكتابته والمنسجمة مع خصوصية فكرنا والخاضعة الى منهج معبر عن نظريتنا .

ومن الطبيعي ان يكون هذا المنهج ليس قائما على رغبة ذاتية وانما هو ضرورة عملية لتحديد المنهج في ضوء التصور العلمي والثوري الذي يستقرىء الاحداث ويفهمها .

هذه الدعوة الصريحة تعني ان واقعا تاريخيا يجب ان يسود ونظرة تاريخية جديدة يجب ان تمتد لكل حدث ، وتحلل كل خبر وتحقق في كل مقولة لتظهر الملامح البارزة وتؤكد السمات الاصيلة وتستلهم العبر الرائدة ونعني ان الواقع التاريخي الحاضر هو صورة بعيدة عن الصورة التي رسمها الاوائل ، وحدد اطارها البناة الحقيقيون وهي بالتالي صورة مغايرة ومخالفة وبعيدة لما اعتراها من تشويه من حيث التناول وتفسير من حيث التحليل والاستشهاد واغتساف من حيث الاطار التاريخي .

ان سلامة التوجه في الدعوة شجع المعنيين على التعقيب والتحليل والتفسير، ووضوح الرؤيا في البحث دفعته الى الانطلاق والانسياب وحملتهم على توسيع البحث والدخول في مداخل جزئية ، وربما غالى البعض فيما ذهب اليه مغالاة ابتعدت كثيرا عن اصول الدعوة . وكنت اتابع ذلك متابعة دقيقة ، واقف عند المواقع التي تستحق الوقوف ، واراجع نفسي والبحث في بعض الاحيان عندما اجد فكرة جديدة او تعليقا صائبا ، او محاولة جادة من محاولات التوضيح أو الكشف . وبعد استقراء شامل واستيعاب مدرك اهتديت الى ان اكثر التعقيبات التي نشرت على صفحات جريدة الثورة او غيرها من الصحف يمكن حصرها في المجالات التالية :

١ ـ اتجهت بعض البحوث الى الخوض في غمار المناهج التاريخية وذهبت الى الاراء التي حاولت ضم التاريخ الى الفصيلة العلمية وقد حاولت الاستشهاد بالاراء والاستناد الى مقولات ، الى جانب المقارنات التي كانت تعقدها بين المنهج التاريخي عند العرب وعند غيرهم من الاقوام .

٢ ـ واتجهت بعض التعقيبات الى تناول الدعوة من زوايا محددة كاشفة عن اهميتها داعية الى الاخذ بها ، وهذا الاتجاه يمثل الاغلبية الكبيرة من التعقيبات .

٣ ـ وحاولت بعض التعقيبات ان تتحدث عن المدارس المختلفة في تفسير التاريخ وما جرت هذه التفسيرات من احكام وضعت الاحداث في قوالب ، وفسرتها وفق نظريات ، واقتطعت من الاخبار ما يوافق هذه القوالب ، ويؤكد تلك الاتجاهات .

٤ ـ واكتفت بعض التعقيبات بفقرات من الملاحظات فوضعتها موضع التحليل ودرستها وفق الاسس التي نوه عنها في البحث فجاءت قريبة من النظرية المطروحة ، محدودة في نطاق حدودها المرسومة .

وكنت اشعر بأن هذه التفسيرات ـ وانا اطالع بداياتها ـ

المورد ـ ع.الثاني ، مج٨ ، ١٩٧٩



WWW.ATTAWEEL.COM

سوف تنتهي الى وضع الافكار موضع التنفيذ والتطبيق،لتاخذ الفكرة بعدها الحقيقي ولتصبح طريقـــا يمهد للباحثين مـــالك الاهتداء ويرسم لهم العلامات الواضحة ، ولكنني كنت اشعـر بان هـــذه التعقيبات تنتهي الى النهايات التي حددها لهـــا اصحابها من خلال السياق لان علامات المنهج الجديد غير واضحة المعالم ، واشارات التطبيق غير متميزة . وقد دفعني ذلك الى ان اكتب هذه الملاحظات لتستكمل الحلقات وتدخل حيز التطبيق وليكون الباحثون على علم بالطريق لكتابة التاريخ .

لقد حدد المقال النظرة الى التاريخ . وهذا يعني ان النظرة الحالية هي نظرة مغايرة وغير مطابقة للنظرة التي نريد ان ننظر بها هذا التاريخ ، وهذا يعني ايضا بان المصطلح المتفق عليـه في اعرافنا والذي نسميه تاريخا لابد ان ياخذ حجما جديدا ، وصورة جديدة ، وبعدا فكريا مغايرا وان هذه النظرة لا يمكن ان تتحقق الا من خلال الكتابة الجديدة وهنا تبرز قضية مهمة واساسية ترتبط بعملية التاريخ مباشرة من اجل اخراجه صورة منسجمة مع خصوصية فكرنا ومعبرة عن نظريتنا وهي قضـــية الكتابة والتحليل والمنهج ، وفي كل جانب من هذه الجـوانب تتحدد ملامح ، وترتسم علامات ، وتبدو اساليب منهج وهي امور اساسية في المرحلة الاولى وهكذا تستمر العملية في متابعة الفقرات التي وردت في البحث لتاتي الصورة متكاملة ولتتضح قسمات المنهج العلمي الدقيق الذي يوافق هذه الدعوة .

ان معالم النظرية التي تضمنها البحث تحدد البعد الجديد لتفسير التاريـــخ وتكشف عن الطريق السليم الذي يجب ان يمهد له من اجل وضعه موضع التنفيذ والتطبيق من اجـــل استكمال النظرية واستيعاب اطرافها والالمام بالاجزاء الدقيقـة التي عرضت لها والانتفاع من الشرائح التفسيرية التي وردت من اجل استخدامها في تكبير التحليـل وتوضيح المنهـج وتعميم النظرية .

ان مجرى الاحاديث لابد ان ياخذ طريقا جديدا وان اسلوب المناقشة لابد ان يسير في درب يمهد للاحداث التاريخية ان تاخذ دربها الحقيقي في ضوء التصور العلمي والثوري . وهذا يوجب على السادة المهتمين ان يبدأوا برسم المنهج ومعالمه والطريـق الذي يسلكه والاحداث التي تدرس والكيفية التي تدرس بها .

ومن الطبيعي لمثل هذا المنهج ان يطبق في دراسة عصر او ظاهرة او فترة او حركة او دعوة او جماعة .

ان التطبيق العملي لهذه النظرية يوجب وضع الحـدود العريضة والاطر المحددة في ظل الموضوعات المقترحـة لتاخـذ حجمها في الدائرة وتظهر قدرتها في مجال التطبيق وليستطيـع المثقفون او المهتمون او الدارسون من ابداء ارائهم ومناقشـــة الافكار المطروحة والصيغ التحليليـــة التي فسرت بموجبهـــا الاحداث والنتائج التي توصلت اليهـا والجوانب التي اكـد عليها والمظاهر الاجتماعية التي وقف عندها والتاثيرات الفكريـة التي حركت تلك الاحداث ، وموقف الجماهير ووضع هـذه الاحداث في سياق التاريخ والمرحلة وتقييمها من خلال الحـركة التاريخية للامة وغير ذلك من المســائل التي تشكل البنيـة الحقيقية لمعالم هذه النظرية . ان اتجاه التعقيبات الى اعادة النظر في الاحداث والاتفاق على تحديد صورة من صور التاريخ باعتبارها شريحة من الشرائح وتطبيق النظرية عليها تطبيقا سليما هو المرحلة الثانية التي يجب ان تتجه اليها البحوث والمرتكـز المرحلي الذي يجب ان تنطلق اليه كل الاجتهادات وعندها يمكن ان نعطي الحكم الصحيح في سلامة الاتجاه الذي يجب ان تتوجه اليه قدرات المثقفين والمعنيين والمؤرخين .

ان المرحلة تقتضي تحويل النقاش الى ورقة عمل تحـدد ابعاد النظرية والمرتكزات الاساسية فيها والدعوة الى كافـــة المعنيين والمهتمين والمؤرخين والمفكرين الى مناقشة هذه الورقة في ضوء التصورات المطروحة والاهتداء الى صيغة موحـــدة لتحديد الشريحة الاولى والمنهج الذي بموجبه نعالج والكيفيـة التي يمكن استخدامها في المعالجة والاحداث البارزة التي تنتقى والمصادر التي يمكن استخدامها وبالتالي اختيار المجموعة الاولى من الذين سيمهد اليهم وضع النظرية موضع التطبيق . فهناك تاريخ العرب قبل الاسلام وتاريخ الدعوة الاسلاميـــة التي تلت الدعوة الى عصرنا الحاضر ، وهنـــاك شرائح لواقع اجتماعي مستمر وفكري وسياسي واقتصادي وديني وشرائح اخرى لظواهر قد تنبثق من كل جانب من هذه الجوانب .

وهناك حركات تحرير وتصد ونحد ومواقف انسانية وقومية ومظاهر اختلاط وتفاعل وتاثير وتاثر ونزعات واجتهادات ، وهناك نظم ادارية وقوانين . وهناك مسائل اخرى كثيرة كلها تقـع في دائرة التاريخ وتنطلق من منطلقاته ، وتعالج احداثـه . وهي جديرة باعادة النظر وفق نظرية التحليل لا السرد والتصـــور الثوري لا السلفي . وخصوصية فكرنا لا النظريات الجاهزة . ان هذه الدعوة التي ارجو لها مخلصا ان تاخذ طريقهـا منذ الآن تشكل التحرك الثاني الذي يجب علينا الانتقال اليه .

ان الرفيق صدام حسين قد حدد الخطوط ووضع المسالة في اطارها وفق منظور حزب البعث العربي الاشتراكي . وقـــد اغنى الاساتذة الافاضل النظرية بما جعلها قادرة على الانتقـال الى مرحلة جديدة وهي مرحلة التطبيق ، وما علينا الا ان نمهد الطريق من اجل الدعوة الى وضع ورقة العمل في اطار نـدوة علمية لا تقف عند المفهوم النظري وانما الانتقال الى التطبيـق واختيار المجال وتكليف من يقع عليهم الاختيار في الكتابة وتحديد الوقت لمناقشة ما يكتب ، وفي ضوء المناقشة تحـــدد ابعاد الطريقة ، ويعهد الى اللجنة او اللجان الاخرى بالمباشرة بعـد تهيئة كافة المستلزمات من مصادر عربيـــة واجنبيـــة ووثائق ومخطوطات وهذا يقتضي اعدادا كاملا ولجنة دائمية تاخـذ على عاتقها هذه المهمة الكبيرة التي يمكن اعتبارها انجازا علميا رائدا من انجازات الثورة ، وحركة احياء جديدة تبقى الاجيال العربية تذكرها بفخر ، وتستلهم منها قدرتها في كل حركة احياء جديدة .

ان اعادة كتابة التاريخ وفق المنطلقات المحددة يؤكد الوحدة الاصيلة للامة ومشاركتها الحية في المجال الحضاري، ومساهمتها في البناء الانساني الى جانب التصور انجـــاد الذي يرسخ في اذهان الاجيال الجديدة ما قدمته هذه الامة في كل مجال وانجزته في كل حقل ، ووصلت اليه في كل ميدان من ميادين المعرفة ، وما تركته انوارها اللامعة من اشعاعات مضيئة في كل مرحـــلة من مراحل التاريخ ، وما سجله ابطالها الميامين من نماذج في التضحية من اجل الدفاع عن الارض والذود عن الحمى والتمثل بما تتناسب مع رسالتها الخالدة في نصـــرة الحق واغاثـــة المستضعفين ومد يد العون الى كل امة تريد ان تعيش حـــرة كريمة .

ولابد ان تترك هذه التصورات في نفوس الاجيال الثقـة الراسخة بالامة التي استطاعت ان تتجاوز كل نكسة ، وتتخطى كل عائق حاول ان يوقف مسيرتها ويعرقل رسالتها وينهي وجودها الاحضاري والانساني،وتقوى بهم فهمشمولية استيعابالمستقبل الجديد بما يحقق له القدرة على المعايشة وتخليصه من اطار التفسيرات التي حاولت حصره في سياق النظريات الجاهـزة وادخاله في دائرة التحليل المغلق واكساءه من الاردية ما كانت بعيدة عن واقعه واصوله فجاءت الاحكام مختلفة والتفسيرات مغايرة ، ويرفد حضارتهم بالادراك الواعي لاحـداث التاريخ وازالة ما علق بها من اثقال ، وحملت به من تفسيرات وادخلت عليها من وقائع لتاخذ تلك الاحداث وزنها الحقيقي ، وتكتسب طابعها الانساني وتسير في المجرى الذي حدد لها في حركة الامة وفي اطار فكرها السليم وقيمها الاصيلة من اجل استكمال الصورة الحقيقية للشخصية العربية التي ظلت حية عبر احداث التاريخ ، وبقيت معالمها شاخصة في كل مرحلة من مراحلهـا لانها تمثل المؤشر الثابت في تحريك الاحداث .

ان المسالة القومية التي تمر بها الامـة تلزم الدارسين بتجميع كل القوى وتوحيد الجهود من اجل تاكيد الحاجـة القومية التي اصبحت مسالة اساسية لتحرير ارادة الامة وانهاء كل اشكال التمزق التي احاطت بها وحالت دون تقدمها لتاخذ هذه الارادة دورها الحقيقي في البناء والتغيير وتاخذ مجالها في الابداع والخلق لوضع اللبنات الثابتة في التاريخ الجديد .

ان الدعوة الى كتابة التاريخ لا تعني باي شكل من الاشكال تلخيص كتاب قديم او تجميع احداث متفرقة او تفسير الاحداث تفسيرا مغايرا للواقع او اقحام التاريخ في مداخل غريبة لان ذلك يعني في واقعه محاولة من محاولات الضياع واتجاها من اتجاهات التفسير الذي يفقد الامة خصائصها الذاتيـة ويخضعها لمواقف لم تكن مؤهلة لها او مطابقة لظروفها التاريخية التي مرت بها ولكن الدعوة في حقيقتها كانت ترمي الى الاهـداف التي كانت تساير الامة في مراحلها وما تمخضت عنه هذه الاهداف مـن نوازع اصيلة شاركت في ترسيخ قواعد وحدتها وتثبيت دعائم وجودها وتاكيد المصالح المشتركة التي كانت تحس بها جماهيرها في مختلف بقاعها ، والاحساس بالمصير الذي تؤول اليه هـذه الجماهير في كل حركة من حركات التاريخ ، وقد اخذت هـذه النوازع خطها الواضح وسياقها الوجداني عبر المراحل الممتدة بعد ان احتفظت باصالتها على الرغم من اشكال التحدي التي تعرضت اليها والمجابهات الخانقـة التي احاطت بوجودها ، والطغيان الاجنبي الذي حاول اخماد جذوتها ، وما تركته هذه العوامل من اثار ، وخلفته من مظاهر تمثلت اشكالها في صـور التجزئة واستطالت الوانها في احجام التخلف واتسعت رقعتها في مظاهر الدويلات الضعيفة .

لقد عاشت هذه الامة وقد آمنت بالحرية ودافعت عنها في كل زمان وقدمت من اجل نشرها كثيرا من التضحيات وماربستها في كل العصور بما يحقق للفرد حياته الكريمة وما يجعل هـذا الفرد قادرا على التصرف فيها بما يكفل للاخرين الحياة الحرة . وعندما توالت على الامة عناصر الشر وتكالبت عليها قوى البغي دافعت عنها بكل ما استطاعت ورفضت اشكالها بكل ما قدرت عليه ، وحاربت اولئك الذين حاولوا استعبادها وقهرها ووقفت منهم المواقف المشهودة . وقد ظلت اثار هذه الظاهرة سمة من سماتها في كل ارض نزلت فيها جيوش التحرير وفي كل عصـر من العصور التي كتب لابناء هذه الامة ان يقودوا المسيرة ، ولا يمكن للحرية ان تعيش بدون عدل ، ولا يمكن ان تكتب الحياة لامة تسعى من اجل الحرية وتنسى نصيبها من العدل ، وهكذا عاشت هذه الامة مؤمنـة بهما ، حريصـة على الوفاء لكل مقوماتهما ، لان العدل صورة من صور الحرية ووجـه من وجوهها ، مارسته الدولة العربية في اعمال خلفائها وقادتها ودافعت عنه في كل تشريع وحددت ضوابطه في كل قانون وقـد اختزن التاريخ من احداثه ما يعطي العدل صورته الحقيقيـة ويملأ احداثه بكل ما يغني وينفع .

والرسالة الانسانية التي آمنت بها الامة كانت رسالـة الخلود والدعوة الكريمة التي حملها الابناء كانت دعوة التحرير من كل قيد والانطلاق في مجال الحياة بما يكفل لهذه الحيـاة الاستمرار والسعادة في ظل التقاليد الانسانية الاصيلة والقيم الاخلاقية الخيرة التي تمثلت في المعاملة الكريمة لكل الاقـوام التي تآلفت معهم والتواصل الاخوي الذي شد بين الشعـوب التي انتمت الى الدعوة الاسلامية والتعاون الروحي الذي كان اساسا من اسس بناء الامة ، وركيزة من ركائز مجدها الخالد .

ان هذه المبادىء الرئيسة التي سادت حياة الامة تمثل التوجه السليم في وضع الخطوط الرئيسة للكتابة على ان يؤخذ بنظر الاعتبار الايمان العميق بوحدة الامة ووحدة وجودها ووحدة مصيرها والالتزام بالجانب الانساني الذي برزت اثاره واضحة على صفحات الاحداث وتجلت معالمه في اعمال الافراد وتميزت خصائصه في اطار الممارسـة الفعلية ، والتحـرك في اطار الخصوصية القومية التي شاركت في البناء التاريخي وحـددت لاحداث التاريخ اطارها المناسب ورسمت لوقائعه الظروف التي عاشها بعيدة عن التفسير الجاهز او اقتطاع الشرائح المناسبة لحصرها في دوائر النظريات التي الحقت بالاحداث او فسرت بها الوقائع واتبـاع الاسلوب العلمي في البحث واستخـدام وسائله المنهجية والاعتماد على الاحداث الحقيقية التي رافقت مسيرة التاريخ .

ان حدود المنهج التاريخي لا يمكن ان تغفل بعض الجوانب التي اغفلها المحدثون من الدارسين ، وان النظرة الشاملة التي يمكن ان تنظر اليها احداث التاريخ لا يمكن ان تكون منفصلة عن العناصر التي ساهمت في تكوينها ورافقت وجودها ، وشاركت الى حد كبير في انضاج مظاهرها الحضارية . فالتاريخ لا يمكن ان يكتب بعيدا عن الادب والادب لا يمكن ان يدرس بمعزل عن الفكر ، والفكر لا يمكن ان يحدد بعيدا عن العمران والواقـع الاجتماعي والنفسي الذي عاشته الجماهير وان هذه المسائل في اطارها العام لا يمكن ان تمثل الا الصور الواضحة للاشـكال التي وقف عندها كل علم من هـذه العلوم ، وان الانفـراد بدراستها والتحديد في رؤيتها يشكل النظرة القاصرة والوحدة المبتورة التي لا تعطي الاشياء تمامها ولا تحقق لها شمولهـا ، ولعل كثيرا من الدراسات التي نطالعها او البحوث التي وقفت عند بعض الوقائع التاريخية كانت محصورة في نطاق الخبـر التاريخي ومقيدة بالحدث الذي رافقها ، ولم يحاول الباحثون

التجاوز عليها او النظر الى ما وراءها ليتطلعوا الى الالوان التي شاركت في تحديد معالم الحدث او التاثيرات النفسية والاجتماعية التي ساهمت في تكوينه او اثرت في توجهاته لان هذه الرؤية تكشف للباحثين عن ابعاد جديدة وتضع احكامهم امام تفسيرات مختلفة وتخضع نتائجهم الى منطق غير المنطق الذي واكب بحوثهم ومن هنا وردت الاشارة الى اهمية الشعر في التاريخ باعتباره صورة من صور الحياة ولونا من الوان احساسها .

* * *

لقد ظل الادب صورة للواقع ، وبقي الشعر فناه نصب فيها احاسيس الشعراء وهي تكشف عن دلالات ذلك الواقع ، وتحدد ابعاد الاتجاهات والاحداث التي تمر بها الامة ، وبقي الشعراء يحملون راية التعبير عن مطامح الناس الذين وهبوهم الاحترام ، وتركوا لهم مجال الانطلاق في تحديد المواقف الصائبة التي اجمعت عليها الامة ، وآمنت بها اهدافا وامالا ، وقد دللت الاحداث على ان الشعر كان وثيقة من الوثائق المعتمدة في التدليل على سلامة الاحداث ولم تكن عادة الاستشهاد به حالة طارئة انفردت بها كتب معينة ، او عرف بها مؤلف او اقتصرت على فن ادبي وحده وانما كانت الكتب على اختلاف موضوعاتها وفنونها تضم شعرا كثيرا ، ونستشهد بابيات لعصور مختلفة ، ولو حاولنا استخراج ما تفرق منها ، وتوزع في ابوابها وتناثر في صفحاتها من شعر لجمعنا شعرا كثيرا ، واضفنا الى تراثنا الشعري تراثا جديدا يحقق له احكاما ويرفد عطاءه بمادة تشارك في توثيق اخباره ، وتحقيق احداثه، ومسالة الاستشهاد بالشعر في كتب السيرة والتاريخ وكتب البلدانيات والمعاجم لا يكاد يختلف عن كتب اللغة والادب والنحو والبلاغة ، فكلاهما يدلان على منهج واحد ويسلكان خطا واضحا، ويهتديان في ضوء مسالة واحدة ، يمكن الوقوف عليها من خلال مواضع الاستشهاد ، والتعرف على اسبابها في ضوء الاخبار المؤكدة التي تحملها الابيات ، وتؤكدها المضامين الفكرية التي تؤديها النصوص . ولعل كتاب السيرة الذي صنعه محمد بن اسحق ، والذي جمعه ابن هشام يؤكد هذه الحقيقة التي لم تكن جديدة في هذا الباب ، وليست غريبة في هذا الفن فابن اسحق لم يكن اول من ادخل الشعر ، وانما سبقه الى هذا التوجه كل الذين الفوا في كتب السيرة ، او صنفوا كتب المغازي ، ومن الطبيعي ان تستقي هذه الكتب اخبارها واشعارها من مصادر يطمان اليها باعتبارها حجة في موضوعاتها ثقة في نقل اخبارها ، موصولة من حيث اتصال رواتها ، وصحة اسنادها ، وتواتر متونها . فقد عرف ابان بن عثمان ابن عفان وعروة بن الزبير بن العوام وشرحبيل بن سعيد وموسى بن عقبة ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وابن شهاب الزهري ، وهم من اصحاب السيرة النبوية . ومن الذين شاركوا في تدوينها وروايتها.. عرف هؤلاء برواية الشعر وحفظه، وان الاخبار التي تروى عنهم تدل على انهم كانوا يوردون الاشعار التي قالها الرجال الذين يرد ذكرهم في حوادث السيرة، او يستشهد باقوالهم في مجال المواضع التي تحتاج الى توثيق مسالة ، او تاكيد واقعة ، او تفسير خبر .

وقد حفلت كتب السيرة والتاريخ والقصص بالاشعار الكثيرة ، لان اسبابها تستدعي هذه الكثرة ، وموجباتها تلزم هذا الاستشهاد ودواعيها توجب التدليل بما يكسبها ثقة وقوة في نفوس المستمعين والقارئين بن ولان الشعر ضرورة لازمة ، فالشعر دليل على صدق ما يروى من اخبار وان ايراده لا يعني اعتباره غاية بقصد لذاتها ، وانما يذكر ليكون مثلا او شاهدا لتوضيح ما يراد توضيحه ، او تفسير ما يورد ، او دليلا يدعم ما يذهب اليه من آراء وهي شواهد صادقة ، وامثلة سائرة فقد ذكر ان معاوية بن ابي سفيان طلب من عبيد بن شرية - حينما كان يقص عليه اخباره المتضمنة في كتاب ( اخبار عبيد بن شرية ) ان يورد في اخباره وقصصه كل ما يتصل من شعر وقال له وسالتك الا تمر بشعر تحفظه فيما قاله احد الا ذكرته ، ومع ان عبيدا كان لا يقصر في الاستشهاد بالشعر ، فقد عاد معاوية يلحف عليه بقوله سالتك الا شددت حديثك ببعض ما قالوا من الشعر ولو ثلاثة ابيات . وكان معاوية كلما سمع الشعر الذي قيل في احدى الحوادث اطمان الى صحة الخبر وقال لعبيد لقد جئت بالبرهان في حديثك .

ان هذه الاخبار وغيرها تؤكد منهجية البحث الذي اعتمده العرب في التوثيق ، وسلامة الطريق الذي سلكوه من اجل الوصول الى الخبر ، وان الشعر ظل جزء متمما ، ودليلا محكما من ادلة تقوية الاخبار ومن هنا جاء الاعتماد عليه والاستشهاد به ، والتوثق من المعاني التي يأتي عليها ، ويتعرض الشعراء في كثير من الاحيان الى الكشف عن المسائل الدقيقة التي ترافق الاحداث ، وتواكب الاخبار لان الشاعر في طبيعته ينظر الى المسائل نظرة الفاحص ، ويهتدي من خلالها الى استشراف الصورة وتمثل المستقبل ، كما اهلته قدرته الحسية، واستجابته الانسانية الى استشفاف الاحساس الانساني الذي يراه ، وهو يتابع الوقائع ، ويشاهد الصور ، الى جانب ادراكه العميق للمعاناة الحقيقية التي تتصارع في النفوس والنوازع البشرية التي تحاول الافصاح عن نفسها في كل شكل من اشكال المعاناة . ومن هنا كان الاعتماد عليه اساسا من اسس المنهجية التي فرضتها طبيعة البحث واكدتها سلامة التوثيق ، فالجاحظ قد عرف بالاستشهاد في الشعر والتمثل به حتى اوشكت كتبه ان تعد مراجع موثوقة من مراجع الشعر، ومثله ابن قتيبة الذي نثر في كتبه اعداداهائلة من المقطعات، وجعلها امثلة للاستشهاد ونماذج من نماذج التدليل ، ومثلهما المبرد وكلهم من رجال القرن الثالث الهجري وكتبهم تعد من الكتب الموثقة والاساسية في الموضوعات التي طرقوها ، والمسائل التي عالجوها .. وقد بقيت هذه الحالة مستمرة عند المؤلفين الاخرين وفي مختلف العلوم والفنون ولعل كتاب الطبري في التاريخ يمثل الصورة الواضحة لهذا الاتجاه . ويكشف عن الخصيصة التي عرف بها البحث في هذه المرحلة .

فالشعر مصدر من مصادر التاريخ والادب وكل ضروب الحياة وصورة من صور الاحداث التي كان يتعرض اليها المجتمع ، وقد حاول الشعراء ان يكونوا رسل الناس في توضيح آرائهم ، والتعبير عن مطامحهم ، كما كانوا امثلة صادقة من امثلة الاقتدار في تحديد القيم الاجتماعية ، والاعراف السلوكية التي اعترت احوال الناس ، وحددت طبيعة العلاقات التي رسمت للمجتمع طريق التقدم ، ولم تكن احاسيسهم بعيدة عن احاسيس الناس اذا تعرضوا للفواجع ، او دهتهم الدواهي ، ولم يكونوا بعيدين عنهم في المشاركة الوجدانية او المهرجانات التي كانت تعم البلاد اذا حققت الامة نصرا ، او تجاوزت مسالة صعبة ، او تعرضت لهزة قوية ، لانهم كانوا

يشعرون بالانتماء ، ويدركون ابعاد الاحساس الجماهيري سلبا او ايجابا ، وعمق المشاعر التي تعبر عنها ..

ان هذه الصورة والدقائق التي تكمل جوانبها تشكل الاطار العام الذي كان يحدد الحركة المستمرة للمجتمع ، وبرسم الزوايا التي تضفي عليها ملامح التالق ، ومشاهد النمو والازدهار . ومن الطبيعي ان تتفاوت درجات الشعراء وهم يخوضون امثال هذه التجارب ، وتتباعد مراليهم في ضوء القدرة الشعرية على التعبير ، وتختلف اقدارهم بعدا او قربا من نفوس الجمهور الذي كان يحس بمدى قدرة الشعراء على ترجمة مشاعرهم .

لقد استطاع الشعر ان يؤرخ الاحداث ويدقق في اجزائها ويحدد ملامح كثيرة لم يقف عندها المؤرخون ، لان المؤرخ كان يكتفي بالنظرة الشاملة وينطلق منها للحديث عن الموضوعات الكبيرة التي اخذت بعدها في واقع الاحداث واثرت في التشكيل العام للنتائج المترتبة واما الشاعر فكانت ملاحظته وهو يعالج الحدث عن قرب ويعيش الوقائع ويدرك الدوافع الحقيقية التي تقف وراءها اكثر دقة من المؤرخ ، واشد التصاقا بالمؤثرات التي تحرك تلك الاحداث، الى جانب البعد الزمني الذي فصل بين المؤرخ الذي ارخ لفترة لم يدركها ، او كتب عن حدث لم يقف عليه وانما اتصلت اليه اخباره وتواترت عليه رواياته فاحكم عقله فيها ، وعمل ذهنه في استخراج خلاصتها ، وسافف في حديثي عند مسالتين مختلفتين عالجهما المؤرخون بطريقة وافرد لهما الشعراء قصائدهم بطريقة اخرى واترك للباحثين الافاضل الحكم في هاتين المسالتين .. المسالة الاولى تتعلق بالردة وكيف وقفت منها كتب التاريخ وكيف عالج امرها الشعراء والثانية تتعلق بالعصر العباسي وما اثيرت فيه من احداث وما هو موقف التاريخ والشعر منهما .

فالردة رجوع عن الاسلام وامتناع عن مبايعة الخليفة الراشد ابي بكر الصديق (رض) وقد اختلفت اشكالها وتباينت حجج اصحابها ولكن موقف الخليفة الحازم ورباطة جاشه بددت احلامهم واضاعت عليهم فرص التردد فاستجابوا لنداء الدعوة صاغرين بعد ان غرر بهم : ولم يكن الشعر بعيدا عن هذا الحدث التاريخي ، فعلى الرغم من المعالجة الشاملة التي عولجت بها هذه الظاهرة فما تزال بعض جوانبها غير معروفة استطاع الشعر ان ياتي عليها وان يفصل في ابوابها(١) فالفخر غرض من اغراض الشعر العربي امتدت معانيه الى هذه الحركة وخاصة بالنسبة لاولئك الذين آمنوا بالدعوة والتزموا بتطبيق مبادئها . ووقفوا من خصومها الموقف الصلب فالزبرقان بن بدر يفخر باداء الصدقات الى الخليفة بعد ان اعادها الاخرون الى قبائلهم لاعتقادهم بان النبوة قد انتهت بموت النبي محمد ( صلى الله عليه وسلم ) فقال(٢) :

وفيت باذواد الرسول وقد ابت
سعاة فلم يردد بعيرا مجيرها

(١) الدكتور سامي مكي العاني . دراسات في الادب الاسلامي/٢٢٦-٢٤٤ .
(٢) الطبري ٣٠٥\٣ .

معا ومنعناها من الناس كلهم
ترامى الاعادي عندنا ما يضيرها
فاديتها كي لا اخون بذمتي
محانيق لم تدرس لركب ظهورها

وبقية الابيات توحي بسلامة العقيدة التي كان عليها هذا الرجل . وسلامة التوجه الذي اتجهت اليه الفئة المؤمنة ، وقد استطاع هذا الشاعر ان يحدد لنا طبيعة الردة التي امتنع فيها بعض السعاة من تسليم اذواد الرسول ، وقد اداها الى الخليفة كي لا يخون الامانة وكان قصده التقوى ومجد الحديث عندما تصبح هذه القيم مجالا للفخر وميثا للتمادح وقد ذكر صفات كثيرة واعمالا كريمة وخصائل ممدوحة وقف فيها عند شجاعته وطعنه وقتاله ومشاهد الصدق التي شهدها .. وهي صور لم يتطرق اليها المؤرخون وهم يتحدثون عن الردة .

وياخذ عمير بن ضنابيء اليشكري جانبا اخر من جوانب التعبير عن الحس الذي كان يعانيه وهو يرى قومه قد ارتدوا فمنفهم نفيفا قاسيا . وفخر بدينه دين النبي الكريم ( صلوات الله عليه ) وان في قومه رجالا بقي الهدى يعمر نفوسهم والتقوى تاخذ بقلوبهم حيث يقول(٣) :

ان ديني دين النبي وفي القو
م رجال على الهدى امثالي

وقد سجل الشعراء انتصارات المسلمين على المرتدين وحاولوا ان يذكروا دقائق هذه الوقائع والكتائب التي شاركت والاحاسيس التي كانت تساورهم وهم يقاتلون اعداء الدين وينزلون بهم الخسائر ويحددون اماكن الوقائع الخالدة(٤) والشعراء في كل هذه المواقع يشيدون ببلاء اقوامهم في الحرب، ويذكرون ثباتهم في المعارك ، وجرائهم على مواجهة الخصوم(٥) وصلابة عقيدتهم التي يضحون في سبيلها بكل شيء وقد ارخت المعارك واحدة واحدة ، وذكرت اسماء القبائل التي ارتدت فاليمامة لها ذكرها ولها وقائعها(٦) والازد وبجيلة وخثعم في شنوءة من ارض اليمن لهم ذكر(٧) ومحجر الزرقان الذي فرت فيه كندة وما جرى لها من احداث له مواقف(٨) واسماء المرتدين الذين قتلوا في بعض هذه المعارك لها احجامها في بعض القصائد(٩) والذي قتل الاسود العنسي يفتخر ويعتز بهذه المهمة(١٠) .

لقد حفل الشعر العربي الذي قيل في ايام الردة بموضوعات كثيرة ، واحتفظ بالوان متميزة لكل صورة من صورها كما كانت معانيه تحفل بالدعوة الى الثبات ، والالتزام بمبادىء

(٣) الاصابة ٣/١٢١ .
(٤) الاصابة ١\١٧٦ نقلا عن دراسات في الادب الاسلامي.
(٥) الاصابة ٣/٦٣٤ .
(٦) الاصابة ١\١٧٦ و ٢\١١٢ .
(٧) الطبري ٣/٣٢٠ .
(٨) الطبري ٣\٣٢٥ .
(٩) الاصابة ٢\١٥٤.
(١٠) الاصابة ٣/٦٣٤ .

الدعوة التي حررت الانسان من كثير مما كان ينوء به ، والتذكير بآيات الله البينات وقد شارك المؤمنـــون بهـــذه الدعـــوات واستطاعوا ان يوقفوا حركة الردة في كثير من القبائل فهـــذا عبدالله بن مالك الارحبي يخطب في همدان وينشدهم قصيدة طويلة يكشف فيها حقائق الدعوة فتستجيب له همدان(١١) ، وقام عبدالحارث بن انس الحارثي في اهل نجران وانشدهـــم ابياتا اكد فيها موقفه من الدعوة وايمانه بمبادئها التي جاء بها الرسول الكريم وما امر به ونهى عنه . فاجابه اهل نجـــران الى ما طلب(١٢) ومثله صنع عمير بن الحصين النجراني(١٣) ، وقد تركت ردة بعض القبائل في نفوس شعرائها اثرا محـــزنا واسفا بالغا وقد عبر عنه هؤلاء الشعراء بما يوضح عمق ذلك الاثروصورة ذلكالاسف(١٤) وقد بلغ ببعضهم التاثر الى حد التبرؤ واعلان ذلك امام القبائل وابلاغ الخليفة ابي بكـــر بذلك(١٥) ، ومجابهة رؤوس الردة بانكار الدعوة وبطلان حججها واسقاط مبرراتها(١٦) ، ولم يكتف الشعـــراء بهذه المواقف وانما حاولواان يوضحوا لقبائلهم مالحق بهم من عار وما اصابهم من خزي وما جرت عليهم ردتهم من آثام(١٧) وقد التحق هؤلاء بسرايا المسلمين(١٨) .

ان قوائم اسماء الشعراء الذين وقفوا بوجه الردة طويلة، وقوائم اسماء الشعراء الذين التحقوا بجيش المسلمين كثيرة ولعل الاحداث التي زخرت بها القصائد تعطي الصورة الواضحة لما كان يجري فعلا وما كان يتحقق اصلا وما كان يساور النفوس من اضطراب وبداخلها من تنازع وتمج به من احوال نفسية ، وما كان يعتمل في اوساط المجتمع والطريقة التي بواسطتهـا كانت تعالج الاحداث ، والتاثيرات الفردية التي كانت تاخـذ ابعادها في تقرير الاحوال ، فحين ارتدت بنو حنيفة خطب لمامة ابن اثال الحنفي فيهم ثم انشدهم شعرا يسخر فيـــه مـــن مسيلمة فاطاعه ثلاثة آلاف من رجالها فانحازوا الى المسلمين ففت ذلك في اعضاد بني حنيفة(١٩) اما تسفيه الدعوة والسخرية من دعاتها فكانت تشكل جانبـــا من جوانب الشعر الذي عالج مسالة الردة(٢٠) .

ولم يقف الشعر عند هذه الاحوال وانما تجاوزها الـى اولئك النادمين الذين عادوا الى رحاب الدعـــوة مستغفرين ، ورجعوا الى صفوف المؤمنين آسفين يغالبهم الحياء ، وتستحوذ عليهم سورة الندم القاتل(٢١) ..

لقد اخذت احداث الردة شكلها في كتب السير والتاريخ بما يحقق لها الصورة المرجوة ويؤكد لونها الزاهي ولكنها لـم تستكمل كل الابعاد التي يمكن ان تحقق وقد ظل الشعر بعيدا عن تسجيل احداثها في كتب المحدثين ، وبقيت تلك القصائـد موزعة في تلك الاسفار بعيدة عن تناول الاقلام .

لقد وظف الشعر في عصر الدعوة من اجـــل التعبير عن المقومات الاساسية التي استندت اليها وما حفل به العصر من احداث ورافقت الدعوة من مؤثرات تداخلت فيها ، ومواقف تحددت من خلالها ، وقد عبر عن كل صورة من تلك الصـــور بما يتناسب معها بعد ان التزم بغاياتها ومبادئها ، وحرص على وحدة الامة والدفاع عن عقيدتها والحفاظ على وحدة فكرها . وقد كانت حقائقه قريبة من الواقع لانها تعبر عنه ومعاناة حية لكل احداثه ، والشعر بعد هذا صورة تاريخية مهمة تحـدد الادوار التي مرت بها حركة الردة والافراد الذين ساهمـوا في الدفاع عن الدعوة والقبائل التي وقفت بكل مجهودها من اجل نصرة الاسلام وقد حددت بعض القصائد اسباب ردة كل قبيلة وحفلت باسماء كثير من الشهداء الذين قدموا ارواحهم رخيصة من اجل نصرة الدين الجديد كما اشارت الى وصف المعارك وحددت المواقع مما لم يتوفر في كتب التاريخ ولم تات على ذكره كتب المغازي او السير او الطبقات ...

ان هذا الشعر يمثل الصورة الواضحة لكل الزوايا التي ظلت معالمها غير متميزة في حركة الردة وان العودة الى دراسة الشعر الذي قيل فيها يسهم اسهاما فاعلا في تقويم كثير مـن الاحداث ويكشف عن جوانب ما تزال اخبـارها مطموسـة ، والاحكام التي قيلت في شانها غير دقيقة ..

والشعر في العصر العباسي ـ شانه في المراحل الاخرى ـ عبر عن احداث العصر ، ووقف عند كثير من المســائل التي اغفلتها اقلام المؤرخين وطويت احداثها ، او عالجتها معالجـــة سريعة لم تستكمل فيها الجزئيات ولم تستطع ان تلم بالاطار الذي وقعت في دائرته ، وقد ترك ذلك فجوات كثيرة في السجل التاريخي دون بحث ، ومن هنا فالشعر يستطيع ان يقـــدم الى المؤرخين وثائق تاريخية لا يجدونها في كتب التاريخ المعروفة ويقدم لكل الباحثين وفي مختلف المعارف ما يعينهم على اسـتكمال بحوثهم وتوسيع المجالات التي يتحركون فيها ، واضافة مـا يمكن اضافته الى كل جانب فكري او حضاري او تراثي ، لان الشعر في طبيعته يقف عند الدقائق ، ويعالج الجوانب البارزة، ويحدد المعالم التي تتحرك في محيطها الاحـداث ، الى جانب الافراد النفسية التي يسبرها ، والعلاقـات الاجتماعيـــة التي يدرك قوتها ، ويتمكن من استجلاء دوافعها وبالتالي يستطيع ان يتخذ لنفسه منها موقفا قد يكون ذاتيـا او جماعيا ولكن هذا الموقف لم يعدم الفائدة ولم يبتعد عن الحقيقة اذا استطاع الباحث المتمكن من تحليل ابعاده ، ودراســـة خوافيـــه ، واستشفاف ما يختفي وراء عبارته التي يفصح عنها الشاعر لمحا او ايماء ..

فقد كان ابو تمام شاعرا مؤرخا وكانت قصائده صـورة لتحرك الدولة ومؤشرا من مؤشرات مواقفها ، فقـد اتصـــل برجالها ، وارخ احداثهم الجليلة ، وبقيت آثار خطواته التي خطاها وهو يحدد معالم شخوص حميد الطوسي وخالد بن يزيد الشيباني(٢٢) وغيرهم باعتبارهم من الابطال الذين خاضوا غمار

---

(١١) الاصابة ٢\٣٥٧ .
(١٢) الاصابة ٢/٣٨٠ .
(١٣) الاصابة ٣\١٢٠ .
(١٤) الاصابة ١/٥٥٦ .
(١٥) ابن عساكر ٧/١٠٠ .
(١٦) الاصابة ١/٧٧ و ٢\١٨٨ .
(١٧) الاصابة ٣/٤٦٦
(١٨) الاصابة ٢\١٩٨ و ٣/٨٩ .
(١٩) الاصابة ١/٥٦٣ .
(٢٠) البلوى الف با ٢\٢٥٥ نقلا عن دراسات في الادب الاسلامي.
(٢١) الطبري ٢/٢٧١ ، ٣\٢٧٦ و ٣\٣١٩ .

(٢٢) ينظر ديوان ابي تمام والمواضع التي وردت فيها هـذه الاسماء .

الاحداث ، وشاركوا في تثبيت دعائم الدولة ، وسجلوا لهذه الامة مآثرها الحميدة في كل مجال . ومن الغريب ان تظل الدقائق التاريخية التي اشار اليها الشاعر في قصائده والاحداث التي وقف عليها بعيدة عن المؤرخين ، ولم تجد لها خطوطها الواضحة فيما كتبوه عن هذه الاعلام ، او اشاروا اليه في الدراسات التي وقفت عند المظاهر العامة التي ساهموا فيها ..

اما البحتري فكانت له وقفات اخرى تناولت كل الوجهاء واولياء الامور الذين كان يمر عليهم في طريقه الى سامراء ، وكل الاسر التي شاركت في حكم الدولة او عاونت على ترسيخ دعائمها ، وممن اكثر فيهم قصائده قائد المتوكل عبدالله بن دينار وابنه احمد ، وابراهيم بن الحسن بن سهل وله فيه نحو عشر قصائد ، وفي كل واحدة من هذه القصائد يذكر احداثا ، ويخلد مواقع ، ويرسم اعمالا تضيف الى فترات التاريخ ما يغني اخبارها ويثري مادتها ، ويضيف اليها ما يكشف عن كثيرا من غوامضها ، اما الفتح بن خاقان فله فيه تسع وعشرون قصيدة(٢٣) . وقد ظل البحتري يسجل احداث العصر بامانة ، ويرصد الوقائع باخلاص فقد سجل سنة (٢٢٥) عقد المتوكل لولاية العهد لابنائه الثلاثة المنتصر والمعتز والمؤيد(٢٤) . وهو لا يترك مأثرة الا ويخلدها ، ولا نصرا الا ويسجله ، ولا مسألة تخص الدولة الا ويتابعها متابعة المؤرخ الواثق مما يقول . فقد نوه البحتري بانتصار المتوكل على بطارقة ارمينية عندما خلعوا الطاعة ، وفتكوا بوالي الفليهم سنة (٢٢٧) وكذلك الامر بالنسبة لتسجيله معركة ابن دينار البحرية ضد الاسطول البيزنطي وحرقه ، وان كتب التاريخ لم تقف عند هذه الحادثة ولم تشر اليها . وعندما احتدم الصراع العنيف بين قبائل تغلب وجر الصدام الى معارك دامية لم نجد كتب التاريخ تعنى بهذا الحدث العناية المنتظرة ولم نجد المؤرخين يخصصون من تاريخهم ما يشير الى دور المتوكل في انهاء هذا الصراع او يتطرق الى اثر الفتح بن خاقان في فض النزاع ، بينما نرى البحتري يسجلها وقد اشار الى حدة القتال الذي اوشك ان يؤدي بتلك القبائل العربية ، ويستاصل شافتها ، وقد بلغ به الاسى الصاه ، وهو يرى الابناء يتقاتلون ، وقد فزع كل واحد منهم الى السيف بعد ان تفرق شملهم ، واقفرت ربوعهم ، وبعد ان كانوا يعيون من رحيق الحياة ويرنوون من مناهل النعيم ، فاذا بهم يتساقون كؤوس المنون ويتواردون حياض الحتوف فما يكادون يفترقون من وقعة دامية حتى يثنيهم اليها كرة اخرى الدم المطلول ، والنجيع المهدور(٢٥) لقد اكد الشعر دوره في هذه الاحداث واستطاع ان يقيمها من خلال المواقف ، ويتابع اجزاءها فقصيدة البحتري « محمل على القاطول اخلق دائره » .. والتي رثى فيها المتوكل تاريخ حافل ومتابعة دقيقة ، وتحديد لكل الذين شاركوا في المؤامرة الى جانب تجسيدها لمراحل التدبير التي رافقت الاغتيال ، وقد عبر بالفاظها الضخمة عن عاطفة الحزن الثائرة حتى لكان الالفاظ كانت تحمل اصوات السلاح وزفرات الحزن ، ونزعات التآمر التي كانت تحيط بالموقف وهي ترتفع من شدة التأثر ، الى جانب دفقات الوفاء العاطفي التي كانت ترافق ابيات القصيدة ، وتختلط بمعانيها الانسانية التي عبر بها عن الفجيعة . ومن الغريب ان تظل هذه الاجزاء بعيدة عن التناول والتحليل من اجل ربط الادب بالتاريخ ، ومن اجل توثيق الخبر بالاقوال التي انطلقت من الرجال الذين كانوا قريبين من موقع الحدث ، والمعروف ان التاريخ لا يحتفظ بالتفاصيل الدقيقة لكثير من المآسي التي حفل بها تاريخ البشرية بسبب حركته السريعة ، وقدرته على استيعاب الاشكال العامة والكلية التي كانت تعانيها البشرية ، وربما يعرض اليها من خلال مواقف معينة لان التاريخ بشكل عام لا يقف وقفات طويلة عند الجزئيات ، ولا يتحدث عن المسائل المباشرة التي تتصل بالاحداث ، وانما يترك السرد التفصيلي لتلك الفواجع، ويكتفي باستقطاب المسائل الرئيسة، ويبرز الحدث الكلي .

ان هذه النماذج القليلة تحدد الثغرات التي تركها اغفال النصوص الادبية ، وتجاوزتها اسفار التاريخ ، وابتعدت عنها اقلام المؤرخين ، فظلت تفتقر الى الخبر الذي يشد بين اجزائها، ويتمم حلقاتها ، ويسد مواضع الانفصال التي بقيت قاصرة عن الاداء وهذا يدعونا الى اعادة النظر في دراسة النصوص الادبية ، وتحليل القصائد التي نجد في ابياتها ما يعطي الاخبار دلالتها ، ويؤكد وقوعها ، ويفسر جوانب غير مستكملة من احداثها ، ولعل حركة الزنج التي شغلت من التاريخ جانبا كبيرا لما استغرقته احداثها ، وامتدت اليه اخبارها تعد نموذجا من هذهالنماذج التيلم يعتمد المؤرخون فيهاعلىاقوال الشعراء، ولم يقفوا على الوصف الدقيق الذي وصفوا به هذه الحركة ، وما اقترفته من اعمال . وساحاول ان اقف على مجموعة من النصوص التي عثرت عليها من اجل ربط الصورة التاريخية بالنص الادبي استكمالا لاداء البحث ، وتوثيقا لسلامة الاخبار التي اجمعت المصادر على صحتها ، ولتكون الجزئيات المتباعدة، والايماءات المتناثرة عوامل مهمة في الاطار الكلي للحركة . ولتضيف هذه الجزئيات الوانها الحقيقية الى كل زاوية من زوايا هذا الاطار ايضاحا للحقيقة ، وايقافا للاجتهادات التي بدات تتطاول حتى على شوامخ المؤرخين من اجل الحكم السريع، والتأثر المسبق بالنظريات الجاهزة ، وتحيزا للحركة التي ادانتها كل كتب التاريخ ووقفت منها الموقف الذي يفرضه الانتماء القومي ، وتؤكده عدالة الحكم التاريخي والانساني .

ومثل اهمية شعر ابي تمام والبحتري في الكشف عن الاحداث ومتابعة الواقع، تتجلى اهمية شعر ابن الرومي وابي فراس الحمداني والمتنبي والشريف الرضي في دراسة الفترة وكذلك الامر بالنسبة للشعراء الاخرين الذين امتدت بهم الحياة فعاصروا احداث التاريخ ، وانفردوا بمعالجة الظواهر الانسانية التي فرزتها احداث الفترات ، وقد استطاع هؤلاء الشعراء ان يدققوا في كثير من الاحداث التي تجاوزها المؤرخون او وقفوا عندها وقفات سريعة ، ويقدموا الاسباب التي احاطت بها ودواعي التأثير في وقوعها ، محاولين تقديم الصورة من جانب آخر ، غير الجانب الذي وقف عليه المؤرخ ، والنظر الى الاحداث من خلال الرؤية الحية ، والتوجه الذي يلامس الوقائع ، ويشعر بتأثيرها ويتداخل في ثناياها . وكذلك الامر بالنسبة للحروب الصليبية فقد ظل الشعر مصاحبا للحملة ، ومعبرا عن كل الملابسات التي احاطت بها ، والانتصارات التي حققتها ، وخطط الحرب التي استخدمت من اجل تحقيق

---

(٢٣) د . شوقي ضيف . العصر العباسي/٢٧٦ .
(٢٤) ديوان البحتري ٢/٧٠١ .
(٢٥) الدكتور يونس السامرائي . البحتري في سامراء/١٩٩ .

الانتصار وما كان يدور في النفوس ، ويعتمل في قلوب القائلين ، ونوازع الاندفاع من اجل التحرير ودوافع التضحيات التي لازمت هذه الحرب الحاسمة ، وتاثير العقيدة ، وما ولدته من نتائج في تحديد طبيعة المعارك ، اما المواضع والاماكن ، والدروب التي دارت فيها ، ووقفت فوقها الاحداث ، فقد كان الشعر دقيقا في تحديدها ، ملتزما بالوقوف عند كل ظاهرة بارزة من تلك الظواهر ، ولابد ان يكون الشعر عنصرا جديدا في مثل هذه الاحداث لضياع كثير من النصوص ، وفقدان اعداد ضخمة من الوثائق ، وان دراسته دراسة تحليل تقدم للفترة ما يغني احداثها ، ويعيد اليها صورتها ، ويكمل اجزاءها المفقودة ويعود الادب مرة اخرى في احداث سقوط بغداد ، وما دار في الاروقة ، وعقد من اتفاقات ، وصور من مشاعر ، وما اصاب الناس واعتراهم من ذهول وما فجع الناس به من مصائب ، وما رافق سقوط المدينة من مسائل ، وما جابهت به جحافل الغزاة من مقاومة ، ولدمته من تضحية على طريق الصمود والتحدي .. كل هذه الصور عبر عنها الشعر ووقف عندها ، وتناول احداثها وفق الاشكال التي كانت تقدمها جموع الجماهير وهي تقاتل او تقاوم ، هذه الصور الشعرية التي رافقت كل حدث ، وعبرت عن كل مسالة كان لها مساس بمصير الامة ، او اتصال بكل قضية عاشت في ضميرها ، وقد التزم الشعراء التزاما فكريا ، فحملوا راية التعبير ، وادوا امانة الفكر والريادة ، فالمعروف ان ابن الرومي شاعر عباسي عاصر الاحداث، وادرك بقدرته البالغة كيفية التعبير على نقل الاشكال كما تقع في الحس والشعور والخيال وهي قدرة لا تقتصر على نقله للاشكال والالوان وانما تمكنه من تصوير الحركة تمثيلا عظيم الدقة ، واستقصائه للمعنى واسترساله فيه ، وقد استطاع هذا الشاعر ان يمد الاحداث التاريخية بسيل من الوثائق ولكنها ظلت بعيدة عن التناول ، فقد وقف ابن الرومي من القاضي يوسف بن يعقوب المتوفي سنة (٢٩٧) موقفا خاصا وقد مدحه بقصيدة بائية حاول فيها ان يبرىء نفسه من تهمته بالزندقة التي نقلت اليه ، ويستشهد على صحة براءته بابنين عدلين للقاضي يعرفان حقيقة امره ، ويستحثه على التنكيل بوشاة السوء الذين دبروا اتهامه بهذه التهمة النكراء ، ويذكر انهم هم الذين دبروا الثورة عليك وجعلوا العامة ترمي دارك بالحصى وبالحجارة فيقول(٢٦) :

فاسال ابنيك : ذا العلاء ابا العبـ
ـاس ، واسال ابا الصلاء النجيبا
النقيين ظاهـــرا ، والنقيـ
ـن ضميرا والمعجزين ضريبا
فهما يشهدان لي بالذي قلت
وما يشهدان لي تغييبا

ثم يقول ..

فاقتل الوالغين في مهج الابـ
ـرار تقتل كلبا عقورا وذيبا
حملوا حملة على الدين تحكى
حملة الروم رافعين الصليبا
وارادوا بك العظيمة لكن
اوسع الله سعيهم تخييبا
وكان الوفاء لما تفاووا
فرموا داركم فضوا تحصيبا
زعموا ان ذاك غزو وحج
تب الله امرهم تتبيبا

ولم تورد كتب التاريخ هذه الفتنة او الثورة ضد القاضي، ولعل في ذلك ما يدل على ان الشعر في هذا العصر يقدم الى المؤرخين وثائق تاريخية قد لا يجدونها في كتب التاريخ المعروفة(٢٧) .

لقد عاش ابن الرومي بعيدا عن ( السلطة ) وظل طوال حياته شاعرا شعبيا وافرد الكثير من قصائده في وصف الحمالين والشوائين والبقالين كما كان يكثر من اوصاف الثياب البالية والاحوال البائسة وهذا ما دفعه الى الاهتمام بالزهاد وكانه وجد في مشاعر الشعب صورة من الصور التي كان يتحدث فيها عن الوعاظ والزهاد ، ليعبر عن طموح هذه الجماهير ، وهذا ما يجعلنا نثق في اخباره ، وتصدق احاسيسه التي كان يعبر فيها عن عظم المأساة وهو يتحدث عن خراب مدينة البصرة بعد دخول الزنج اليها ، وما صنعوه فيها ، وجلل المصيبة، فالقصيدة ملحمة من ملاحم الشاعر التي صور فيها النكبة المروعة التي حلت بالبصرة فبكاها بدموعه الغزار ولعل مطلعها الحزين الذي افتتح به القصيدة يوحي بعمق الحزن ، ويكشف عن المرارة القاسية التي اعترته حيث يقول(٢٨) :

لذاد عن مقلتي لذيذ المنام
شغلها عنه بالدموع السجام

وفي اختيار الشاعر لوزن الخفيف الذي تنساب فيه الحسرات هادئة وتجرى فيه المشاعر وديعة مسترسلة ، وانتقائه لهذه القافية الممتدة التي يستطيع من خلالها ان يمد نبرته الباكية ، وصوته الدامي ، في هذين الاختيارين يتجلى البعد النفسي الذي اشتدت قدرته في نفس الشاعر ، والتاثر البالغ الذي اعترى قلبه وهو يراقب المأساة ويسمع الاخبار التي كان صداها يتجاوب في اطراف الدولة ، وهو يجلل باحاديث الفواجع ، وتحف به صور الاشلاء المتناثرة .

ثم يسترسل الشاعر فيقول(٢٩) :

اي نوم من بعد ما حل با
لبصرة ما حل من هنات عظام
اي نوم من بعد ما انتهـ
ـك الزنج جهارا محارم الاسلام
ان هذا من الامور لامر
كاد ان لا يقوم في الاوهام

---

(٢٦) ابن الرومي . الديوان ٢٤١/١ ( تحقيق الدكتور حسين نصار ) .

(٢٧) د . شوقي ضيف . العصر العباسي الثاني/٣٠٨ .
(٢٨) ابن الرومي ٤١٩/٣ ( اختيار كامل كيلاني ) .
(٢٩) ابن الرومي ٤٢٢/٣ ( اختيار كامل كيلاني ) .

لرايتـــا مستيقظين امـــورا
حسبنـــا ان تكـون رؤيا منـــام
اقـــدم الخـــائن اللعين عليهـــا
وعلى اللـــه ايمـــا اقـــدام
وتسمى بغـــير حـــق امامـــا
لا هـــدى الله سعيـــه من امام

يقدم الشاعر الصورة التي افزعته بعدما حل بالبصرة من المصائب العظام ما جعلها عرضة للتخريب والدمار ، فاي نوم يمكن ان يرتضيه الانسان وهو يسمع باخبار الهدم ، واي نوم يمكن ان يتسرب الى العيون بعد ان انتهك الزنج كل المحارم وتجاوزوا كل المسائل المعقولـــة ، وان الامور التي اقترفت والمحارم التي تجاوزت تكاد لا تصدق ، ولا يمكن ان يقوم لهـا دليل حتى في الاوهام .. وهذا يدل على تخطيها كل الحـدود المعقولة واختلافها عن كل الاشكال المعروفة في التخـريب ، او المسموعة في الاخبار . وان هذه الرؤية نراها ونحن مـستيقظون وكنا نتصور اننا نراها ونحن نيام لهول ما جرى فيهـا ، وفداحة ما وقع من احداث ، فقد اقدم ( الخائن ) اللعـين ( صاحب الزنج ) على هذا العمل فاقترف ما اقترف . وادعى كذبا بالامام ، وبدعو الله ان لا يهدى سعيه .. ان كل هـذه القضايا التي عرض لها ابن الرومي قد وردت في اخبار الطبري وربما كانت جزئيات ابن الرومي اكمل ، ودقائقهـــا ادق في استكمال الصورة ...

ويمضي الشاعر في تلهفه فيقول(٣٠) :

لهف نفـــسي عليك اينهـا البصـ
ـرة لهفـــا كمثل لهب الضـــرام
لهف نفسي عليك يا معـــدن الـ
خيرات لهفـــا يعضني ابهامي
لهف نفسي عليـك باقيـــة الاسـ
ـلام ، لهفـا يطول منـــه غرامي
لهف نفسي عليك يا فرضـــة البا
سدان ، لهفا يبقى على الاعـوام
لهف نفـــسي لجمعك المتفـــاني
لهف نفـــسي لعـــزك المستضـــام

لقد اكد الشاعر تلهفه في تكرار العبارات لان التكرار في هذا الموضع يزيد المعنى قوة من خلال تقوية النغم ، ويخلـق الاجواء المأساوية التي تدخل الى النفس الحسرة ، وتثير فيها لواعج التاسف . وان الحاح الشاعر على تاكيد هذه الصورة التي كانت تأخذ بعدها العميق في نفسه تحدد المعالم البائسـة التي اجتاحت المدينة ، وتشخص الالوان التي استحالت اليها بعد ان تفاني جمعها واضيم عزها وتأخذ القصة صورتها عنـد الشاعر وهو يسرد احوال المدينة قبل ان تطأها اقدام الغـزاة وقبل ان تتعرض للهجمة الظالمة فيقول(٣١) :

بينمـــا اهلهـــا باحســـن حـــال
اذ رماهـــم عبيدهـــم باصطـــلام
دخلـــوها كانهـم قطـــع الليـــ
ـــل اذا راح مدلهم الظـــلام
اي هول راوا بهـــم ، اي هول
حق منـــه يشيب راس الغـــلام
اذ رموهـــم بشارهـــم مـن يمـــين
وشـــمال وخلفهـــم من امـــام
كم اغصـــوا من شارب بشـــراب
كم اغصـــوا مـــن طاعم بطعـــام
كـــم ضنين بنفســـه رام منجـــا
فتلقـــوا جبينـــه بالحســـام
كم اخ قد رأى اخـــاه صريعـــا
ترب الخـــد بين صـــرعى كـــرام
كـــم اب قـــد رأى عزيز بنيـــه
وهو يعلى بصـــارم صمصـــام
كـــم مغـــدى في اهلـــه اسلموه
حـــين لم يحمـــه هنـــالك حامي
كم رضيع ـ هناك ـ قـــد فطموه
بشبا السيف قبـــل حين الفطـــام
كم فتـــاة مصونـــة قـــد سبوها
بارزا وجههـــا بغـــير لثـــام
صبحوهم فكابد القـــوم منهـــم
طول يوم كانـــه الف عـــام
من راهـــن في المســـاق ســـبايا
داميـــات الوجـــوه للاقـــدام
من راهن في المقاســـم وسط الز
نـــج يقسمن بينهـــم بالسهـــام
من راهـــن يتخـــذن امـــاء
بعـــد ملك الامـــاء والخـــدام

في هذه اللوحة قدم الشاعر جانبا آخر وقف فيه عنـــد الهول الذي اعترى المدينة وطريقة الهجوم التي تعرضت اليها والنار التي بدأت تتوجه الى معالمها من كل الجهات وقد حاول الشاعر أن يكرر ( كم ) الخبرية سبع مرات ، وهي بعد ان بجعلها تتصدر جملا تحمل مضامين الصور التي كانت ، تتراءى الشاعر من خلال الاخبار والاحداث فالشارب غص بشرابه والطاعم غص بطعامه والحريص على نفسه كان يروم النجـاة الا ان الحسام كان اسرع الى جبينه قبل ان يجد الملاذ ،والاخ الذي صادف أخاه وهو يصرع وقد تمرغ خده بالتراب وامتد مع الكرام الآخرين الذين صرعتهم سيوف الغدر ، والاب الذي كان يرى اعز بنيه وقد طاله الصارم الصمصام . والعزيز الذي كان يغدق بكل غال اصبح نهبا لسيوف الموت بعد ان فقد الانسان الذي يدافع عنه ، أما الرضيع فقد كان السيف

(٣٠) ابن الرومي الديوان ٤٢٢/٢ .
(٣١) ابن الرومي الديوان ٤٢٢/٢ ـ ٤٢٣ .

اعجل اليه من لحظة الغطام والحرائر المصونات قـــد برزن ممزقات الثياب داميات الوجوه .. لقد حاول الشاعر أن يستصرخ الضمير من خلال الابيات ويستثير النفوس في ايضاح الرؤية الحقيقية ، ويدفـــع الحريصين الى الدفـــاع عن الامة وعزها ، والشعب وابنائه الميامين ، والحرمـــات وما تعرضت له ، لان المصاب لم يكن هينا ، والقتل لم يكن طارئا، فقد تضمنت الابيات الدعوة الى الجهاد لنجدة المدينةالصابرة والذود عن الحرمات المستباحة ، والصورة تمثل زاوية من زوايا الملحمة التي أراد ان يؤرخ فيها لهذه الحادثة .. واخبار التاريخ تقرب في كلياتها من هذه الصورة ، وتبتعد في جزئياتها عن احداثها التي كان يراها الشاعر بعيون ثاقبة ، وتتجسد وقائعها في تعبيره صورة من صور البشرية وصوتا من اصواتها الخالدة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان . ويعود الشاعر الى نفسه ثانية ليتذكر الفواجع فيقول(٣٢) :

ما تذكـرت ما اتى الـزنج الا
اضـــرم القلب ايمـا اضـــرام
ما تذكرت ما أتى الـزنج الا
اوجعتني مـرارة الارغـــام
رب بيـع هنـاك قد ارخصوه
طال ما قـد غلا على السـوام
رب بيت هنـاك قـد خـربوه
كان ماوى الضعاف والايتـام
رب قصر هنـاك قـد دخلوه
كان من قبل ذاك صعب المرام
رب ذي نعمـة هنـاك ومـال
تركوه محـالف الاعـــدام
رب قوم باتوا باجمع شـــمل
تركوا شـملهم بغـير نظـام

وكعادة الشاعر في تكرار اللفظ الذي كان يروم منه تقوية النغم ، وتاكيد الحدث وترسيخ الصورة فقد وجد في التذكر واستخدام رب وما بعقبها ما يعبر فيه عن همه الكبير وحزنه المتواصل ، وما تثيره في نفسه الذكرى من لواعج ، فالنهيب الذي يضرم القلب يخالط هذه الذكرى وكذلك مرارة الارغام واستباحة كل الاشكال التي يمكن ان تكون ملكا خاصا، فالبيوت قد خربت بعد ان كانت ماوى الضعاف والايتام والقصور قد انتهكت بعد أن كانت مقتصرة على دخول اصحابها وصـاحب النعمة اصبح حليفا للفقر ومجتمع الشمل صار طريدا مشردا وهكذاباتتالمدينةضائمةحائرةتسودها الفوضىويحكمفيها القتلة، وتستباح فيها المكارم ورواية القصيدة تاكيد لرواية التاريخ، والاحداث التي يعرض لها الشاعر تتشابه الى حد بعيـد مع اخبار الطبري او غيره من المؤرخين الذين استقوا بعض اخبارهم من غير الطبري ، وتوثيق الاحاديث التي يشير اليها ابن الرومي توثيق لاخبار الطبري التي لم يتطرق اليهـا الشك ، ويميل ابن الرومي الى استنطاق احداث اخرى ، واستجواب مرافق اشـد ازدحامـا وهي تمثـل عنصرا حيويا من عناصر الاستدامة ، ومرفقا اصيلا من مرافق التزاحم التي كانت تعطي المدينة ثقلا اقتصاديا مهما ، وقاعدة بشرية تتقاطر اليها جحافل التجار ، وينتشر في بقاعها اصحاب المصالح ، ويحاول ان يقف عند كل جزء فيرسم الجانب الاشمل الذي صار اليه وهو من خلال ذلك يعقد المقارنة بين الحالين ، والمفارقة بين الصورتين ليقف المتابع على واقع المدينة بعـد النكسة ، ويحدد معالمها بعد الاستباحة فيقول(٣٣) :

عرجـا صاحبي بالبصرة الزهـ
ـراء ، تعريج مدنف ذي سـقام
فاسالاها ولا جواب لديهـــا
لسؤال ـ ومن لهـــا بالكلام
أين ضوضاء ذلك الخلق فيهـــا
أين اسواقها ذوات الزحـام
اين فلك فيها ، وفلك اليهـــا
منشئات في البحر كالاعـــلام
اين تلك القصور والدور فيهـــا
اين ذاك البنيـان ذو الاحكـــام
بدلت تلـكم القصور تـــلالا
فتداعت اركانهـــا بانهـــدام
سلط البشق والحـريق عليها
فتداعت اركانها بانهـــــدام
وخلت من حلولها فهي قفـــــر
لا ترى العين بين تلك الاكـــام
غير ايـد وارجل باتـــــــات
نبـذت بينهن افلاق هـــــام
ووجوه قـــد رملتهـــا دمـــاء
بابي تلـكم الوجوه الدوامي
وطئت بالهوان والذل قســـــرا
بعد طول التبجيل والاعظـــام
فتراها ، تسفي الرياح عليهـــا
جاريات بهبوة وقتـــــــام
خاشـــعات ، كانهـــا باكيـــات
باديات الثغور لا لابتســـــام

ويستمر الشاعر في الوقوف على كل جانب ، فمرة يقف على المسجد الجامع ليساله عن اهله الذين لازموا عبـادته ، وقضوا فيه ايامهم في التلاوة والانقطاع ومرة يعود الى نفسه ليرفض كل الاعذار والمبررات التي تحاول التملص من الدفاع عن المدينة واهلها ، وان وشائج كثيرة وروابط عدة تفرضعليهم الالتزام والدفاع ، وفي ختام القصيدة يدعو الناس الى الجهاد، ويستحثهم على ادراك الثار ويتهم كل الذين يتخاذلون بالمشاركة في الاثم ..

فالقصيدة بكل اطرافها والوانها واحداثها تمثل وثيقـة تاريخية ، ويقدم فيها الشاعر أجزاء من الدمار الذي حـل

(٣٢) ابن الرومي . الديوان ٤٢٣/٣ .

(٣٣) ابن الرومي . الديوان ٤٢٤/٣ .

بالمدينة ، ويرى جوانب لم تعتدها احداث التاريخ الى جانب العوامل النفسية الاخرى التي اشار اليها ، والاحاسيس التي تلمسها في صور الناس وهم يراقبون الموقف على قرب ، ويلمون بالاحداث عن دراية ، ويعيشون المأساة بكامل ابعادها ومن الطبيعي ان تكون تعبيراتهم اقوى على الافصاح ، ومشاعرهم ادل على الواقع ، واحاديثهم اقرب الى الصحة ، والشاعر يعلم كل العلم ان حالة الهلع التي انتابت الناس وهم يتناقلون الاخبار كانت حالة مشوبة بالفزع مقترنة بكل صور الاهتزاز النفسي والقلق الجماعي .. ان محاولة الجمع بين الصورة الادبية والوثيقة التاريخية تشكل محاولة جديدة من محاولات الدراسة وان جمع الاجزاء المتناثرة من الصورة الكبيرة ، وربط الاحداث التي تتناثر في اطراف القصيدة تمثل التوجه الجديد لاعادة النظر في احداث التاريخ وتوجيهها بما يخدم المسالة العلمية ويحدد سلامة الاتجاه الذي ظلت كثير من قضاياه مجالا للاجتهاد ودائرة لاستخراج الاحكام التي تظل بحاجة الى تمحيص ودراسة .

ويقف ابن الرومي في قصيدة اخرى ( يمدح بها صاعد بن مخلد ويذكر صاحب الزنج ) بلغ عدد ابياتها مائتين واثنين وثمانين بيتا ، والمعروف ان صاعد بن مخلد من القواد الذين أبلوا بلاء حسنا في انهاء حركة الزنج ، وكان عدد الفرسان والرجال الذين قدموا معه زهاء عشرة الاف ، وكانت له وقعة مع صاحب الزنج اضعفت اركانه(٣٤) وظل يتقدم مع الموفق وفي الصفوف الاولى حتى قتل صاحب الزنج .. وقد استأثرت بطولته واقتحامه لعلي بن محمد ( صاحب الزنج ) في عقر داره وفي اعمق مدخل من مداخله ، بشاعرية ابن الرومي فقال فيه هذه القصيدة ، ويمكن تلمس بعض الجوانب التاريخية التي اكدها الشاعر والتي تضفي على الاخبار ما يؤيدها فيقول(٣٥) :

قتلت الذي استحيا النساء وأصبحت
وتبدته في البر والبحر تواد
وقتل اجذال العبادة عنوة
وهم ركع بين السواري وسجد
ينال اليهود الفاسقون امانة
ويشقى به قوم الى الله هود
حصرت عميد الزنج حتى تخاذلت
قواه وأودى زاده المتزود
فظل - ولم تقتله - يلفظ نفسه
وظل - ولم تأسره - وهو مقيد

والقصيدة كما اشرت طويلة يمكن مراجعتها ، ولكنني آثرت الوقوف عند هذه الابيات لاشير الى حدثين من احداثها ، الاول يتعلق بقتل المصلين في المسجد الكبير في البصرة يوم الجمعة وهو ما اشارت اليه كل المصادر بعد ان امنهم فكانوا بين راكع وساجد .. والحادثة الثانية انفاقه مع اليهود وهي مسالة خطيرة ، وقف عندها ابن ابي الحديد فقال(٣٦) .. وجاءه شخص من اهل الكتاب من اليهود يعرف بمارويه فقبل يده وسجد له وساله عن مسائل كثيرة فاجابه عنها فزعم اليهودي انه يجد صفته في التوراة ، وانه يرى القتال معه ، وساله عن علامات في يده وجسده ذكر انها مذكورة في الكتب فاقام معه ، ويؤكد ابن الرومي هذه الحقيقة في البيت الثالث حيث يقول:

ينال اليهود الفاسقون امانة
ويشقى به قوم الى الله هود

والصورة واضحة لان اليهود - كما يبدو من النص - نالوا معه او اخذوا الامان منه ، اما الذين شقوا بظلمه وقتله فهم الناس الذين تابوا الى الله . وهذا ما تؤكده الاخبار . وهناك مسائل اخرى اوردها الشاعر تتعلق بمحاصرة صاعد لصاحب الزنج واحراق بيادره التي كان يقوت اصحابه منها وكان احراق ذلك من اقوى الاشياء على ادخال الضعف على الفاسق واصحابه(٣٧) ، وهذا ما جاء في البيت الرابع ، وأكده الشاعر في البيت الخامس ..

ان هذه الاخبار المتناثرة - والقصيدة تعد تسجيلا كاملا لكثير من الاحداث - تضيف الى النصوص ما يثبت حقيقتها ، ويؤكد وقوعها ، ويجزم بحدوثها ، وربما تقدم بعض ابياتها الوانا تضيف الى الوانها ما يعطيها صفة الاشراق ، وقدرة التعبير ، ووضوح الوقائع ..

ومن الطبيعي ان تتعالى في بعض قصائده امثال هذه الصيحات التي وجدت في نفسه ما يثيرها ، وكانت تتحدر من خلالها صور المآسي والفواجع التي بقيت اخبارها تجوب الديار فتنطلق بكل ما يثير السخط والغضب ..

والبحتري شاعر آخر من شعراء العصر الذين هزتهم الفواجع وادمت قلوبهم الاحداث واستصرخت ضمائرهم الاعمال اللا انسانية التي ارتكبها صاحب الزنج ومن معه ، وقد صور لنا بعض الاحداث بما يطابق او يتجاوز ما ذكرته كتب التاريخ(٣٨) وقد اشار في بعض ابياته الى الثروة الكثيرة التي جمعها وهي ما تؤكده كتب التاريخ ، فيقول(٣٩) :

ولم ار كالملعون اثرى ذخيرة
وأبقى دما ، والحادثات تجاذبه

ان اشارة ابن الرومي تكشف عن فقدان البرنامج الذي تلصقه بعض الدعوات بالحركة وان منطلقاتها ذاتية وفردية ، تسعى من أجل الربح الفردي ، ويسعى رئيسها الى الاستحواذ على الثروة وهذا يطابق الخبر الذي ذكره الصفدي في رسالته عن صاحب الزنج والتي نشرها الدكتور عبدالجبار ناجي في مجلة المورد(٤٠) ، يقول الصفدي : « ولم تزل عساكر الزنج تعبث وتفسد وتغير في اعمال الاهواز وعسكر مكرم وتستر وما صاقب هذه النواحي يقتلون الرجال ، ويسبون النساء والاولاد وينهبون الاموال ، وحصل ( الخبيث ) على اموال وجواهر استأثرها

---

(٣٤) الطبري ٦٥٤/٩ احداث سنة ٢٦٩-٢٧٠ .
(٣٥) ابن الرومي . الديوان ٥٩٦/٢ .
(٣٦) ابن ابي الحديد . شرح نهج البلاغة ٣١٥/٨ .
(٣٧) الطبري . تاريخ الطبري ٦٤٩/٩ احداث سنة ٢٦٩ .
(٣٨) انظر قصيدته في مدح الموفق وذكره لصاحب الزنج في ديوانه ٢١٥/٢ ( صادر ) .
(٣٩) البحتري : الديوان ٢١٦/٢ .
(٤٠) المورد . المجلد الاول : العددان الثالث والرابع ، ١٩٧٢ .

واعطاها نساءه واولاده فانكر ذلك عليه جماعة منهم ، فقال : نسائي ليست كنسائكم، انهن امتحن بصحبتي، وخرجن من بعدي على الرجال .. الخ(٤١) . وتتكرر هذه الاخبار في بعض المصادر الاخرى ، وان تاكيد هذه الحقيقة من خلال نص البحتري وبهذا الوضوح تكشف عن الصورة التي كان عليها صاحب الزنج ، وطريقة الحياة التي اختارها لنفسه ولاهل بيته ، وكيف ترك الآخرين الذين كانوا يفتشون مثله عن الكسب الفردي والنهب الذاتي الذي يسد اطماع الرغبات التي كانت تتعالى في نفوسهم دون ان تكون هناك خطة ، او ينتظمهم برنامج أو تنظم حياتهم فلسفة ( كما يدعي بعض الذين كتبوا عن الحركة) .. فهي كما تبدو حركة استهدفت الكسب وحاولت تجميع الناس من أجل مطامع غير مشروعة زينها لهم صاحب الدعوة ، واستغل بساطة بعضهم فزج بهم في اتون حرب طاحنة مستفيدا من انصراف الدولة الى اخماد الحركات المناوئة التي توالت على الدولة العربية بعد ان احيطت الدولة بكل عناصر التخريب ، وحشدت من اجل اسقاطها كل العناصر الحاقدة والظالمة .

ويقف ابن المعتز في ارجوزته المشهورة عند صاحب الزنج ويخصص له منها عددا كبيرا من الابيات ، ويتحدث عن دقائق كثيرة تتعلق بحركته ويفتتح الابيات التي تخصه بقوله(٤٢) :

وكان قد مزق ثوب الملـــــك
طوائف ايمانهم كالشـــــرك
فمنهم فرعون مصـــــر الثاني
عاصي الاله طائع الشـــيطان
والدلوي قائـــــد الفســـاق
وبائع الاحـرار في الاســـواق

ويعدد الخارجين ثم يفصل الحديث عن صاحب الزنج فيقول(٤٣) :

فلم يـزل بالعلوي الخـــــائن
المهلـــــك المخـــرب للمدائن
والبائـع الاحـرار في الاســـواق
وصـاحب الفجـار والمـــراق
وقاتل الشـــيوخ والاطفـــــال
ومنهب الارواح والامـــــوال
ومهلك القصور والمساجـــــد
وراس كـل بدعـــة وقائـــد

لقد اجمل الشاعر اوصافه التي عرف فيها ، واعماله التي قام بها فهو يهلك الناس ويخرب المدن ، ويبيع الاحـرار في الاسواق ويقتل الشيوخ والاطفال وينهب الناس والاموال ويدمر القصور ، ويحرق المساجد وهذا ما تنص عليه كل كتب التاريخ بلااستثناء ، وتسجله بلا زيادة، وتتفق عليه بلا خلاف، فاخبار الطبري بشانه معروفة وما سجله ابن ابي الحديد يؤكد هذه الحقائق وساحاول الاكتفاء بنصوص من رسالة الصفدي التي حققها الدكتور عبدالجبار ناجي نفسه لنرى المطابقة بين ما ذهب اليه الشاعر ، وما ثبته الصفدي .. يقول الصفدي « وخرج في السحر من ليلة السبت لليلتين بقيتا من شـــهر رمضان من سنة خمسة وخمسين ومائتين فاجتمع عليه الغا عبد من الزنج فقام خطيبا ووعدهم ان يقودهم ( ويملكهم الاموال ) .. ثم يقول .. ولم يزل ينهب ويقتل وغنم خيلا وسلاحا وقتل خلقا كثيرا من اهل البصرة . ولم يزل في العيث والفساد الى ان استولى على الابلة ، واضرموا فيها النار فاحترقت باجمعها، وقتل خلقا كثيرا ، وغرق خلق كثير ، وحوى الاسلاب . هذا وسراياه في القرى تعيث وتفسد، فترك اهل البصرة القام بها وهربوا الى سائر النواحي ثم انه دخل البصرة سنة سبع وخمسين ومائتين وقت صلاة الجمعة فقتل واحرق الى يوم السبت ، ثم عاد يوم الاثنين فتفرق الجند ونادى أهل البصرة بالامان فامنهم، ولما ظهر الناس قتلهم فلم يسلم الا الشاذ واحرق الجامع ومن كان فيه فعم الحريق الناس والدواب والمتاع وغير ذلك .. واستخرج الاموال من اربابها وقتل الفقراء(٤٤) .

ان الصورة التي ذكرها ابن المعتز في قصيدته مطابقة الى حد بعيد للصورة التي قدمها الصفدي ، وتكاد تكون متشابهة حتى في دقائقها واجزائها واذا كانت هناك حقيقة واحدة فانها تتجلى في هذا الاتفاق المتشابه ، والاتحاد المتطابق في الجانبين الادبي والتاريخي ، وفي هذه اللقطات المصورة ، والوقفات الانسانية التي تستهوي الشاعر والمؤرخ لانها لقطات حية ، ووقفات تدعو الى استصراخ الانسانية من اجل الانسان الذي طوله جحافل القتلة وهي تستبيح المدينة ، ومزقته سنابك الغزاة ، وهي تحرق كل اثر خالد وتدمر كل معلم حضاري شارك في بنائه فكر الامة ، وعمل على شموخه ابداعها الانساني الخير. اما بيعه للاحرار في الاسواق فقد اوردتها معظم كتب التاريخ وساقف عند رواية ابن ابي الحديد التي يقول فيها(٤٥) : وبلغ من امر عسكره انه ينادي فيه على المراة من ولد الحســـن والحسين والعباس وغيرهم من اشراف قريش فكانت الجارية تباع منهم بدرهمين وبثلاثة دراهم . وينادى عليها بنسبها هذه ابنة فلان بن فلان واخذ كل زنجي منهم العشرين والثلاثـــين يطؤهن الزنج ويخدمن النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف ، ولقد استفانت الى صاحب الزنج امرأة من ولد الحسن بن علي عليه السلام وكانت عند بعض الزنج وسالته ان يعتقها مما هي فيه او يثقلها من عنده الى غيره ، فقال لها هو مولاك وهو اولى بك .

فقول الشاعر : البائع الاحرار بالاسواق

صورة من صور الممارسات التي كان يتعامل بها ( صاحب الثورة ) من اجل انتهاك الاصالة العربية ، والنسب العربي ، ويتعمد السماسرة في اعلان الاسماء بالانساب ايغالا بالحقد ، واشتفاء لما تضمره الفئات الحاقدة على هذه الامة الصابرة ، ومن اجل ان تكون النساء او مجاميعهن في خدمة الاخريات ،

---

(٤١) المورد . المجلد الاول ، العددان الثالث والرابع ، ١٩٧٢ ص ٢٠ .

(٤٢) ابن المعتز . الديوان ١/٥٧٤ ( تحقيق الدكتور يونس السامرائي ) .

(٤٣) نفس المصدر ، ١/٥٢٨ .

(٤٤) المورد ، المجلد الاول ، العددان الثالث والرابع ، ١٩٧٢ ص ١٩ — ٢٠ .
وينظر شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ٨/٢١٧ — ٢١٨.

(٤٥) ابن ابي الحديد . شرح نهج البلاغة ٨/٢١٨ .

وهكذا تكون أصالة الثورة وتحرير الانسان التي نادى بها هذا الرجل ( المصلح ) ..

ثم يقول الشاعر(٤٦) :

ما زال حيا يخدع السودانا
ويدعي الباطل والبهتانا
وقال سوف افتح السوادا
واملك العباد والبلادا
وقال اني أعلم الغيوبا
لم ير فيهم عالما مجيبا
فخرب الاهواز والابلة
وواسطا قد حل فيها حلة
وترك البصرة من رماد
سوداء لا توقن بالميعاد
واطعم الزنوج أطفال الناس
مكيدة منه فاعظم من ناس
فواحد يشدخ بالعمود
وواحد يدخل في السفود
وبعضهم مسمط مربوط
وبعضهم في مرجل مسموط
وجعل الاسرى مكتفينا
اغراض نبل ومغلفينا
وبعضهم يحرق بالنيران
وبعضهم يلقى من الحيطان
وبعضهم بصلب قبيل الموت
وبعضهم يشن تحت البيت

ان الصور المفردة التي يقدمها الشاعر في لوحته المتكاملة منثورة في كتب التاريخ وان كانت اشكالها غير مفصلة ، او اجزاؤها غير موضحة ، ولكنها تلتقي في الاطار العام باللاانسانية التي عرفت بها الحركة وباللا قومية التي تميز بها الطابع الذي رافقها والنص الادبي في هذه الصورة يكشف عن الخداع الذي مارسه وهذا ما اجمعت عليه كل الوثائق التاريخية سوالبساطة التي استغلها عند هذه الجماميع البشرية التي افرتها المطامع المادية ، فاندفعت كالظلام تجتاح المدينة ، وكقطع الليل تغطي البشر وتسحق الانسان وتدوس كل المعالم الانسانية ، وقد مناها بفتح السواد وتمليك العباد والبلاد ، وقد اكد ذلك في خطبته يوم عيد الفطر بعد ان جمع اصحابه وقال لهم « انه يريد أن يرفع اقدارهم ويملكهم العبيد والاموال والمنازل »(٤٧) وادعى بانه يعلم الغيوب كما جاء في نص القصيدة ، وتؤكد كل المصادر التاريخية هذا الادعاء وسأذكر ما أورده الصفدي في هذاالمجال ، قال الصفدي(٤٨) : وكان بسر من رأى وتصرف في اشغال الديوان ، وقال الشعر ، واستماح به ثم حدث في نفسه الكفر والحنث ، ودعوى الامامة ( وعلم الغيب ) والخروج على الائمة . وقال في موضع آخر(٤٩) : وجال في البادية ، واستغوى من لقيه من الاعراب ، واوهمهم انه يعلم منطق الطير اما بقية ابيات الارجوزة فحقائقها معروفة ، واحداثها مشهورة، وكل ما جاء فيها توثيق لما اخبر به الرواة ، وتاكيد للحقائق التي وقفوا عندها .. ولعل الصور الاخيرة تشهد بقتل الاطفال والطرق التي استخدمها من أجل القتل فالشدخ في الاعمدة ووضعهم في الحدائد المستخدمة في الشواء وقتلهم بطريقة وضعهم في المياه المغلية واعدام الاسرى بعد تكتيفهم وربطهم ثم رميهم بالنبال . او الحرق بالنيران أو رميهم من فوق السطوح العالية أو الصلب أو هدم البيوت على رؤوسهم .. هذه الاساليب التي استخدمت في قتل الناس ربما تجاوزتها اقلام المؤرخين لان التاريخ في العادة لا يميل الى الجزئيات ، ولايبحث عن التفاصيل وانما يقدم الصورة التي انتهى اليها الحدث في اغلب الاحيان.

ان صاحب الزنج لم يترك طريقة للقتل الا استخدمها ، ولم يجد وسيلة للتعذيب الا جربها وقد ترك لجيشه اختيار الطريقة ، وترك للناس الذين أمسكت بهم يد الغدر ان تموت واقفة او صابرة ، او مؤمنة بالقدر الذي كتب عليها ، وفي كل هذه الصور دلالات اللا انسانية التي استخدمت في التعذيب والموت ..

وتعدد الارجوزة اسماء القواد الذين قتلوا منهم موسى بن بغاومفلح الاسود ومنصور بن جعفر بن دينار ونصير ابو حمزة قائد السفن الذي مات غرقا ويؤكد الطبري ذلك في حديثهسنة (٢٦٩) والطريقة التي قتل فيها وتستمر الارجوزة في ذكر الاحداث الاخرى التي ارخ لها ابن المعتز ، وهي احداثاخذت ابعادها في العصر العباسي ، وشغلت الدولة ، وصرفتجهودها وبددت من الارواح والاموال ما كان بالامكان وضعه في المواضع المستحقة وهي ارجوزة يمكن ان تخضع الى التحليل والمطابقة مع وقائع التاريخ لتثبيت وجهات النظر ، وتاكيد أخبار التاريخ، وتوضيح ابعاد الاشكال التي عرضت .

ويختم الطبري احداث سنة سبعين ومائتين بقوله :«وكان خروج صاحب الزنج في يوم الاربعاء لاربع بقين من شهر رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين ، وقبل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة سبعين ومائتين ، وكان دخوله البصرة وقتله اهلها ، واحراقه لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال سنة سبع وخمسين ومائتين فقال ـ فيما كان من أمر الموفق ، وامر المخذول ـ الشعراء اشعارا كثيرة(٥٠) ..

ان اشارة الطبري تحدد لنا ما تركته الحركة في نفوس الشعراء بحيث نظموا هذه الاعداد الكبيرة من الشعر وقد اشار الى بعضها فذكر قصيدة ليحيى بن محمد الاسلمي،ويقول بعد ان يذكر قطعة منها وهي طويلة ثم يذكر قطعة اخرى ويأتي على قصيدتين ليحيى بن خالد ويعقب على الثانية بعد ان يذكر ابياتا منها وهي طويلة .. ثم يعود الى الاستشهاد بقطعة اخرى ليحيى بن محمد ويعقب عليها بانها طويلة ..

---

(٤٦) ابن المعتز . الديوان ١/٥٢٩ ـ ٥٣٠ ـ ٥٣١ .

(٤٧) ينظر مقالتي في مجلة قضايا عربية ( حركة الزنج وموقعها من الثورة العربية ) عدد أيار ١٩٧٨ .

(٤٨) الوردي . رسالة الصفدي /١٨ .

(٤٩) نفس المصدر والصفحة .

(٥٠) الطبري . تاريخ الطبري ٩/٦٦٢ .

ومن يتابع هذه المقطعات يجد فيها بعض الصور التي اتى عليها المؤرخون ففي قصيدة يحيى بن محمـــد الاسلمي يمدح الموفق ويشيد بقضائه على الحركة فيقول(٥١) :

ورد عمارات ازيلت واخربت
ليرجع فيء قـد تخـرم وافيـا
وبرجع امصارا ابيحت واحرقت
مرارا فقد امست قواء عوافيـا
ويشفي صـدور المؤمنين بوقعـة
يقر بها منـا العيون البواكيـا

وفيه يقول :

ملك اعاد الدين بعـد دروســه
واســتنقذ الاســرى من الاغــلال
اطفات نيران النفاق وقـد علت
يا واهب الامال والاجـــال
افنيت جمع الكافرين فاصبحوا
متلددين قد ايقنوا بـــزوال
اقررت عين الدين ممن قـــاده
وادلتـه من قـاتل الاطفال

ان هذه الاشارات تشكل الملامح العامة التي اتسمت بها الحركة ، وهي اشارات تؤكد ما ذهب اليه المؤرخون .. واذا كان بعض ممن عرضوا لهذه الحركة قد اتهموا الطبري بانه كان يسمي صاحب الزنج بالفاسق او الخبيث ، فانني اود ان اذكرهم بان اكثر قصائد الشعراء التي قيلت بشانه واصحابها معاصرون له قد نعتوه بهذا النعت ، واطلقوا عليه من الاوصاف اضعاف ما اطلقه عليه الطبري ..

ان محاولتي هذه تمثل المحاولة الاولى في هذا المجال ، وانني واثق ان دراستها وتقييمها في ضوء ما قدمته من موافقات، والتقت عليه من نتائج وتوصلت اليه من حقائق لا بد أن تفسح البحث التاريخي في طريق جديد لدعم الوقائع التي وقف عليها المؤرخون ولتأييد اليوميات التي مرت بها من خلال الايام المسجلة والاسفار المدونة .. وساعود الى استكمال حديثي عن جانب آخر من هذه الجوانب .

(٥١) الطبري . تاريخ الطبري ٩/٦٦٤ .



WWW.ATTAWEEL.COM